فن الرسم في كوردستان ما قبل التأريخ

فرهاد بيربال❖
ترجمة بتصرف: نارين صديق عام كاك

إن أولى النتاجات التشكيلية الإبداعية لإنسان ما قبل التأريخ، والتي تم العثور عليها إلى الآن، تعود إلى ما بين (٣٠٠٠٠) و(٢٥٠٠٠) قبل الميلاد. وإحدى هذه القطع عبارة عن تمثال امرآة بارتفاع (١١) سم، ملامحها غير واضحة، سيقانها قصيرة، عثر عليه في (ويلندورت) في النمسا. وثاني الأعمال هو تمثال رجل ارتفاعه (٢٠) سم يعود إلى الحقبة التاريخية نفسها، عثر عليه في (برنو) في تشيكوسلوفاكيا.

أما عن بدايات الرسم، ففي تصنيف قدمه(هوغ هونور) و(جون فليمينك) اللذان كتبا تاريخ فن الرسم، يتضح أن مراحل بزوغ هذا الفن عند إنسان ما قبل التاريخ تقسم إلى أربع مراحل:

١- مرحلة فن الصيادين.
٢- مرحلة فن الكهوف.
٣- مرحلة فن العصر الحجري الميزوليتيكي.
٤- مرحلة فن مستوطني الحقول/ الفلاحين.

وتتضح ظاهرة الصيد بقوة في رسومات المرحلتين الأولى والثانية، فاكثر الرسومات المنقوشة على الأحجار هي صور لحيوانات مثل الماعز والغزال والحصان، ملونة باللون الأسود والأحمر والأزرق، أما صور الرجل فقليلة، والمرأة فنادرة. ثم بدأ الإنسان بالاستقرار منذ (العصر الميزوليتيكي) وما بعده، بسبب الزراعة والحصاد، فبنى البيوت، وطرأ التغيير على الأدوات والمنحوتات والآلات التي يستخدمها في حياته، حتى أواني وأوعية الطبخ حدث تغييرٌ عليها وأصبحت منقوشة ومزينة، وهذا ما نلاحظه من الآثار التي عثر عليها في (تل حلف) على الحدود بين العراق وسوريا الشمالية، حيث بدأ باستخدام خطوط رفيعة عند رسمه لحيوان ما.

أما في كوردستان، وتحديداً في العصر الحجري الوسيط، أي قبل(١٣٤٠٠ سنة)، عندما كان الإنسان يعيش عند تخوم البرك والانهر الصغيرة والسهول في كوردستان، فقد شهدت الأدوات والآلات تقدماً واضحاً، فظهرت الأدوات المصنوعة من قطع صغيرة من الأشجار والأحجار والعظام بأشكال هندسية دقيقة، كرأس الحربة والسكين والمنجل. ويدل ذلك على أن الإنسان البدائي الكوردي في هذه المرحلة كان يمتلك شعوراً بالفن والجمال، وبدأ بالاهتمام بعدته وآلاته عن طريق رسمها وإسباغ شكل معين عليها. والى الآن لا تزال هناك العديد من تلك الأدوات مثل الفأس والأواني وأدوات المطبخ والنبال والسكاكين باقية في كهوف(هه زار ميرد)، و(جه رمو)، و(زه رزى)، و(بالى كووره)، و(شانه ده ر).

ويتفق المؤرخون على أن الزراعة والعمران ظهرت لأول مرة في مناطق (شانه ده ر)، و(هه زارميرد)، و(زاوى جه مى)، وإن السيراميك(الفخار) صنع لأول مرة في موقع (جه رمو) في كوردستان العراق ومن ثم في (ته به كوران) في كوردستان إيران، وبعد ذلك انتشر في أنحاء الدنيا. إن سيراميك موقع (جه رمو) هو أول أنواع السيراميك في تأريخ حياة الإنسان، ويتميز بكونه ذا أرضية صفراء، ومنقوشاً عليه باللون الأحمر، أما الخطوط فمرسومة بشكل متقاطع وهو ما يعرف بـ (سيراميك جه رمو المصبوغ). وقد تم اكتشاف مجموعة مشابهة له في منطقة (ته به كوران) في كوردستان إيران. ويبدو أن أحدهما هو مصدر للآخر، ويرجح أن يعود تاريخ صناعتها إلى ما بين عامي(٦٣٠٠) و (٦١٠٠) ق.م، في حين أن سيراميك (تل حسونة) في جنوب الموصل ،الذي يعود تاريخه إلى العصر الحجري المعدني (٥٦٠٠ ـ ٣٥٠٠)ق.م، هو بشكل عام ملون باللون الوردي والبرتقالي والبني، وذو أرضية سوداء. وتعد مواقع/ كهوف(هه زارميرد) في سهل (به رانان) بالقرب من(سه رجنار) في السليمانية، و(شانه ده ر) في منطقة (برادوست)التابع لأربيل، و(تل حلف) على الحدود بين العراق وسوريا الشمالية، و(كه نج ده ره) في كوردستان إيران، و(تل حسونة)، من أكثر مواقع كوردستان أهمية وذلك لانتشار وتطور أنواع السيراميك فيها. كما وعثر على العديد من الأدوات المشابهة لما سبق ذكره في كهف (بالى كووره) بالقرب من السليمانية، وكانت أيضا لها أشكال هندسية مصنوعة من الحديد أو من عظام الحيوانات.

إن آثار هذا العصر الحجري الوسيط اكتشفت بصورة أوضح في موقع (كريم شهر) الواقع شرق (جمجمال) بحوالي ٩٠كلم. وكان يضم مجموعة من الآلات الزراعية مثل المنجل والمضرب والهاون مع بعض أدوات الحصد وجرش الحنطة.

لقد كان الإنسان الكوردي في عصر حياة الكهوف يرسم صور الحيوانات على جدران الكهف، معتقدا انه بذلك يستطيع السيطرة على تلك الحيوانات،إذ تعد نقوش ورسوم وصور العصور القديمة في سهول وكهوف (شانه ن ده ر)، و(وجه رمو)، و(كردى قالنج ئاغا)، و(زيوه)، و(به رده بالكه)، و(هه زار ميرد)، أولى مراحل فن الرسم لدى القومية الكوردية. وقد عثر في اغلب الكهوف والمواقع الأثرية في كوردستان على عشرات النقوش والرسوم وقطع السيراميك والأعمال المصورة المتنوعة التي يرجع تاريخها إلى العصر الحجري الميزوليتيكي (٨٠٠٠ قبل الميلاد). ويتحدث (هوغ هونور) و (جون فليمينك) عنها قائلين: هذه المجموعة من النقوش والرسوم(يصل عددها إلى ١٥٠ صورة) والتي عثر عليها في كهف (كجه كه نجه كان- الفتيات الشابات) في قرية (يه دى سالكيم) في موقع أناضول (٧٦ كم جنوب شرق مدينة وان)، هي حفنة من الكنوز الصورية لعصور كوردستان الحجرية. ومعظم تلك الرسوم مرسومة باللون الأحمر أو القهوائي على الصخور الصغيرة المنتشرة أمام الكهف، أو تلك الموجودة على جدرانه الداخلية. والأشكال المرسومة قسم منها عبارة عن نساء آلهات أثناء رقصهن، أو آلهة أخرى واقفين على ظهور الحيوانات، أو صور لتلك الحيوانات التي ما زلنا نرى رسومها وأشكالها إلى الآن على المفروشات الكوردية. والقسم الآخر عبارة عن مناظر الصيد والقنص، أو الطقوس الدينية الذي كان إنسان ذلك العصر ينظمها ويمارسها داخل الكهف. وفي قرية (ترشين)، نجد الرسومات منتشرة على الصخور وفي البساتين وعلى سفوح الجبال والتلال، وأغلبها عبارة عن حيوانات ومناظر صيد يعود تاريخها إلى(٤٠٠٠) ق.م، تماماً كأنها متحف في الهواء الطلق. وكلها مرسومة بالتكنيك نفسه: حفر، أو خدش الصخور، لذا يمكننا القول أن إنسان ذلك العصر الحجري، في ذلك الموقع كان يمتلك أسلوباً ونهجاً معينا.

إن البحث في نقوش ورسوم وسيراميك عصور ما قبل التاريخ في كوردستان، يعني إمكانية استكشاف الجذور الفنية الثقافية للكورد، وتحديد مستوى الذائقة والموهبة الفنية لدى الإنسان الكوردي، والتعرف – انثروبولوجياً –على عادات الكورد وتقاليدهم ومعتقداتهم الدينية والعشائرية والروابط الإثنية والثقافية التي كانت قائمة بينهم وبين جيرانهم؛ وكل ذلك يعني توفير مادة معرفية غنية يمكن أن تسهم في تحليل وفهم الطابع الثقافي والاجتماعي والنفسي للشخصية الكوردية المعاصرة.

❖ نشرت هذه الدراسة في مجلة (رامان) الكوردية/ العدد٩٣/آذار ,٢٠٠٥

شعر

قصة اخوّة

عبد الله كوران*
ترجمة: عز الدين مصطفى رسول

أخي العربي
آه ... كم من عباءةٍ
كم من لبادٍ .. مزقنا
أثناء كنا نعملُ للظالمين
آه .. كم مسحنا العرقَ من جباهنا
ونحنُ مثقلونَ بالأحمالِ
وإن حركنا ظهورنَا المنهكةَ المحدودبة
كان الظالمون يهبّون متوعدين
وكنا مجبرينَ على أن نغرسَ المعاولَ
دون أن نتوقف
في الأرضِ ، في جلودنا
بكتفي هذه ... وبتلك
ومن رؤوسِ معاولنا تدفقتْ
سيولٌ.. وسيولٌ من ذهبٍ وجواهر
وكانت تُنهَبُ ... وظللنا أنا وأنتَ
نمد يدي شحاذ
من أجل كسوةٍ رثّة...
وكسرةِ خبزٍ متعفنة يابسة
وعيوننا المترصدة، كانت تنتظر!
❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖
أخي العربي يا ذا العينين السوداوين
مرآكان نصيبك، مرآكان نصيبي
قد جرعنا المرارةَ من كأسٍ واحدة
فأضحتْ أخوتنا عسلاً شهياً
أخوانِ ؛ عربيٌ وكرديّ
كم مددنا رؤوسنا في قلوبِ بعضنا البعض
وارتوينا من الهمسات
وشددنا أيدينا في قلبِ مشورةٍ نافذة
مرة أخرى بهذه الكتف، مرة أخرى بتلك
ودون أن نتوقفَ، صرنا نضربُ المعاولَ
ولكنْ...
معولٌ في أعماقِ البئر
ومعولٌ في حلقاتِ السلاسل
فإذا بها تتحطمُ حلقةً .. حلقة..
وخلتِ الأقفاصُ من أسرى وعبيد ..
خلتْ قفصاً قفصا
والآن، أخوانِ متحرران
حقا حران سعيدان
لكن ثمة ضبابٌ يعكّر أفقينا
والتيهُ مصيرُ السائرِ في أفقٍ معتم
إن تهنا .. إن ضعنا، فالأشرارُ مترصدون
الأشرارُ يسدون دربَ من لا طريقَ له !

❖ (عبد الله كوران) شاعر الكورد الخالد. ولد في حلبجة ١٩٠٣م وتوفي بالسرطان في بغداد ١٩٦٢م. يعد من أعظم مجددي الشعر الكوردي أسلوباً ومضموناً. امتزج لديه الإبداع الشعري بالعمل السياسي، فكرس حياته لنصرة المظلومين في العراق وكوردستان.

متابعات

إصدارات كوردية حديثة

(عالم عبد الحليم يوسف التعبيري)

للكاتب(محمد محيي الدين مينو)

عن منشورات دار ملهم للطباعة والنشر في حمص بسوريا، أصدر القاص السوري (محمد محيي الدين مينو) كتاباً عن الكاتب الكوردي (عبدالحليم يوسف)، مترصداً فيه تجربته القصصية. ويأتي الكتاب، وهو الجزء الأول، ضمن سلسلة من كتب للمؤلف، تحت عنوان: تجارب جديدة في القصة السورية القصيرة. يتضمن الكتاب ملحقين: ألبوم صور للكاتب عبدالحليم يوسف، والثاني، ثبت بصور أغلفة كتب عبدالحليم يوسف بالعربية والكوردية أو المترجمة إلى اللغة التركية. هذا الكتاب يعيد إنصاف العربي لجاره الكوردي، والتفاتة من هذا الجار إلى أن ثمة أدباً غير أدبه، قريباً منه، ومختلفاً عنه، هو أدب الكورد.

ديوان (أينما ذهبت)

للشاعر طه خليل
دار الينابيع / دمشق /٢٠٠٤

في لغة مصاغة من ألم وحرقة، يلج الشاعر الكوردي السوري (طه خليل) محراب القصيدة منصاعاً إلى نداء داخلي صادر عن روح معطوبة، معلناً ولادة ديوانه الثالث ((أينما ذهبت)) بعد مرور عشر سنوات على صدور ديوانيه (ملك أعمى) و(قبل فوات الأحزان) .لا يحيل عنوان ديوانه الجديد إلى معنى محدد، وإن انطوى على معاني الرحيل والسفر على أجنحة المجهول. الشاعر في هذا الديوان ينصرف عما يعكر صفو الإصغاء إلى نداءات روحه الكسيرة، يلملم رماد أيامه ككوردي يعيش معاناة مزدوجة على الصعيد الحياتي الشخصي وعلى الصعيد السياسي، لكنه يهمل هذا الجانب الأخير، أو بمعنى أدق هو يبتعد عن التقريرية والمباشرة، فالحديث عن معاناته الشخصية بوصفه فرداً لا وطن له ولا استقرار، يحيلنا وبشكل غير مباشر إلى معاناة الكوردي الذي عاش تاريخاً تراجيدياً، فكان أسيراً للجغرافيا وضحية للتاريخ.

نشاطات ثقافية

معرض

قامت مديرية الفن التشكيلي في أربيل، بافتتاح معرض خاص للفنان التشكيلي(إسماعيل خياط) بعنوان (ذكرى الأنفال من فرنسا إلى كوردستان) في قاعة ميديا (غاليري كوردستان)، و استمر المعرض لمدة ثلاثة أيام.

مسرح

في قاعة الثقافة في أربيل، وبحضور مدير قسم فن المسرح قدمت فرقة مسرح (سالار) عرضاً مسرحياً بعنوان(زرادشت)، لمؤلفته الدكتورة (وهبية شوكت)، وإعداد و إخراج (بديعة دارتاش)، ومن تمثيل نخبة متميزة من الممثلين. وقد عرضت هذه المسرحية سابقا في السليمانية.

ندوة فكرية

عقدت في السليمانية ندوة للسيد (رابه ر طلعت) تحت عنوان (القومية الكردية بين التحليل النظري والواقع السياسي التاريخي).

أمسية شعرية

أقام مركز (كلاويز) الأدبي في أربيل أمسية للشاعر والكاتب (أحمد مه لا) الذي قرأ مجموعة من قصائده، منها: (الأحلام)، و(جزء من قصص جسد)، و(الموت)، و(حينما أعود ستخجلون). وحضرها عدد غفير من الفنانين و الكتاب والشعراء.

سينما كوردية

فيزونتيل توبا

مثلما كان يشد مقدم البرامج الكوميدية (يلماز أردوغان) جمهوره إلى الشاشة الصغيرة، نجح هذه المرة في نقلهم إلى قاعات الشاشة البيضاء ليشاهدوا فيلمه الجديد (فيزونتيل توبا)؛ نقلهم من مقاعد منازلهم التي اعتادوا الجلوس عليها للاستمتاع بلحظات فرحة ساخرة، إلى صفحة منسية من تاريخ وطنهم، وبعض من خفايا تاريخه الشخصي في قريته الكوردية الصغيرة في جنوب شرق تركيا. في هذا الفلم سيتابع الجمهور صورة التحولات السياسية التي شهدتها تركيا إبان الثمانينيات، حين وصل العسكر إلى السلطة بانقلاب فاشي، أوقف كل تحول منتظر للديمقراطية وأسس لحالة فوضى اجتماعية وسياسية، كان ضحيتها كالعادة الشعب المغلوب على أمره.

من دون أدنى شك أن فيلم (فيزونتيل توبا) هو فيلم (أردوغان) الشخصي بامتياز، على المستوى الإنتاجي والقصصي. فهو مخرجه وبطله وكاتب السيناريو له. وقصته هي حياة (أردوغان) في الثمانينيات، وهو يودع سنوات طفولته، ولهذا يمكن ملاحظة صدقية وحرارة الواقع المنقول سينمائياً، ما يشكل أحد أهم عناصر نجاحه، إذ ينتقل بحس فني رفيع من الخاص إلى العام، فيزوغ بمهارة من تسجيل الواقع السياسي المباشر، ليمزجه بتفاصيل يومية تعيشها القرية، تعكس الملمة والحراك الاجتماعي المخفي تحت السطح.

وتبتدئ الأحداث في يوم صيفي حار من عام ثمانين، حينما يصل باص ركاب إلى ناحية (هكاري) الكوردية الواقعة في جنوب شرق تركيا، و ينزل منه رجل وامرأة وابنتهما، وهي فتاة شابة معوقة. وعلى مبعدة منهم ينزل (أمين) من دراجته النارية والمعروف بـ(أهبل القرية)، وعلى وجهه ابتسامه بلهاء، ويتجه إلى العائلة مبادراً لمساعدتها، بعد أن علقت نظراته بنظرات الشابة (توبا أونسال). ويرحب هذا الشاب الثلاثيني (أردوغان نفسه) بكرم بالزوار الجدد ويعرض عليهم مساعدته. وأثناء التعارف، يفاجئ الزائر الجميع عندما يعلن انه جاء ليباشر عمله كمدير جديد لمكتبة الناحية! المفاجأة تكمن أن لا وجود لأي مكتبة في هذا المكان. وسيعرف الناس أن الحكومة قد تعمدت نفيه من العاصمة إلى هذه الأراضي البعيدة والمعزولة، بسبب نشاطه السياسي المعارض. بالمقابل سيتحرك أمين (الأهبل) ومدير الناحية لبناء مكتبة جديدة بجهودهم الخاصة. مقابل هذا الجانب الإيجابي يتحرك آخرون لوقف هذا النشاط، والشرطة تدعمهم. بين هذين الطرفين وصراعاته، هناك حياة كاملة في القرية تتحرك وتتفاعل بعيداً عنها، ينقلها لنا الفيلم بمشاهد متقطعة تظهر انشغالاتهم اليومية وعقليتهم ومستوى بؤسهم، عبر مشاهد سريعة تذكرنا بعوالم الكاتب التركي (عزيز نسين)، ونلم خلالها بعوالم القرية وعلائقها المتشابكة: قصص الحب السرية، ونفاق موظفي الدولة وانتهازيتهم، ورشوة رجال الشرطة وامتيازاتهم، وعزوف الناس عن حضور عروض السينما المتهرئة بعد منع أفلام المخرج الكوردي (يلماز كوناي) فيها، وعمليات البيع والشراء في أسواقها، حيث هاجس الناس الأول توفير مستلزمات الحد الأدنى لعيشهم . مشكلة الفيلم الأهم هي السيناريو وحواراته، فـ(أردوغان)، وبسبب عمله فناناً استعراضياً، لجأ إلى لعبة اللغة وتحويراتها، لمنح أعماله قوة تعبير كوميدية أكبر. على مستوى آخر أدت الكاميرا دوراً كبيراً في توازن الفيلم، وقدمت بلغتها ما عجز الحوار الضروري عن فعله، كما أسهمت الموسيقى والأغاني في شد انتباه المشاهد إلى مجريات الأحداث.